

فمن قال : زيد جاءني أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذلك التمييز من أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا لقائم متفائرة كلها في الأدلة وإن استوت من طريق الإصراب فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الدهن والثاني المؤكد يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر .

وكثير من كواكب الاستشراف وعلما اللغات، نوهوا بخصوصية الأعراب في العربية قال العلامة « بركلمان » عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بثروة عظيمة من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبير عن علامات الأعراب والنحو ذروة التطور في اللغات السامية .

وقال البهانة : « لوي مسينيون » في حين أن اللغة السريانية قد نقلت أجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا صرفا ، استطاعت لغة الضاد أن تشيد بناء ضخما من الأعراب يضع أمام الإبصار مشهدا فلسفيا ذا روعة وأصالة .

فاللغة العربية لها من الخصائص لافهام المعاني الدقيقة والمعاني الثانوية التي تصل إلى نهاية الإبداع وكمال الصنع ، ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والأعراب في ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء في مكانه الملائم له وتعطي كل ذي حق حقه .

فلا إبهام ولا لبس ولا غموض ولا تعقيد . بل وضوح وإبانة وهدى وانصاح .

3) العربية والحركة

اللغة العربية من أعرق اللغات منبتا وأكثرها رسوخا والقواما جلادة وأشدها بنيانا وفي ظل الحضارة الإسلامية صارت أبعد اللغات مدى وأوسعها أفقا وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الإنسانية .

واستطاعت العربية في رحاب عالمية الإسلام أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر وترتفع حتى تصعد أرقى اختلاجات النفس .

وقد يفرقون بين المعاني بالحركات وغيرها فبالحركة يقولون : « مفتوح » لئلا يكسر الميم وفتح التاء و« مفتوح » بفتح الميم لموضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز بناء التانيث وعدمها فيقولون امرأة طاهر بدون التاء إذا أرادوا طاهرة من الحيض لأن الرجل لا يشاركها فيه وإذا أرادوا طهارتها من العيوب الخلقية قالوا امرأة طاهرة لأن الرجل يشاركها فيها فيحتاجون إلى التمييز بينهما ومثله امرأة قاعد إذا انقلبا الحبل وقاعدة من العمود أي جالسة لأن الرجل يشاركها فيه فيقال : رجل قاعد . ويروى أن رجلا دخل على أمير المؤمنين علي - كرم الله وجهه - فقال له من فيسر أعراب : « قتل الناس عثمان » فقال له أمير المؤمنين « بين الفاعل من المفعول رض الله فاك » .

وبنت أبي الأسود الدؤلي وقفت مرة تشاهد السماء وتتعجب لجمالها . فقالت لبيها « ما أحسن السماء » فقال أبوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا أسأل وإنما أنا تعجب » فقال لها اذن قولي « ما أحسن السماء » وأفتحي فاك . وسمع أبو الأسود قارئا يقرأ قوله تعالى « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام في رسوله فأكبر أبو الأسود ذلك وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله .

وكان هذا سببا في وضع علامات الأعراب للمصحف بأمر زياد .

ويروي ابن قتيبة أن رجلا من الخوارج مدح رئيسهم شيبيا بن يزيد الخارجي بقصيدة في بيت منها :

ومنا سويد والبطين وقعناب

ومنا أمير المؤمنين شيبب

فاخذه عبد الملك بن مروان وسأله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم أقل هذا بل قلت : ومنا أمير المؤمنين شيبب بفتح الراء في أمير أي يا أمير المؤمنين فأمر بتخلية سبيله .

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى الأعراب عند العرب فقال : إن كلامهم أي العرب - واسع وكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الأعراب والإبانة إلا ترى أن قولهم : زيد جاءني مغاير لقولهم : جاءني زيد . من قبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم .

ولقد زادتها مرونتها وقهرتها على التفوق تبلورا
وتفاعلا ونماد وامعتها طاقة خلاقة وحياء مدهشة .

وكان لحركتها التي امتازت بها : الاصلية
الجاهدة المولدة المطاوعة والميزات المطاوعة المتطورة ولم
تعد حروفا وقوالب فارغة يملأها الفكر فتحمله ،
بل انها بعض الانسان المسلم بعض كينونته ، هو
ينبوعها وهي مجراه وقلنا انها بعض الانسان المسلم
لأنها لغة القرمان الكريم وانك لتجد الاحساس الحقيقي
متمكلا في مفرداتها وينجلي هذا في التركيب ، نكل
كلمة لها في الجملة مكان يحس بها التكلم وان شئت
بمباراة اخرى فقل : تحس بها الكلمة نفسها .

وتكاد تمثل كلماتها خطرات النفوس وتصور
الفاظها مشاهد الطبيعة تكاد تتجلى معانيها في اجراس
الانفاذ وتمثل في نبرات الحروف كأنما كلماتها
نبضات القلوب ورحيق الحياة ومشامل القوة .

فليس هنالك معنى من المعاني ولا فكر من
الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات
تعجز اللغة العربية ، عن تصويرها بالاحرف والكلمات
تصويرا صحيحا هي المقاطع يارز القسامات .

والحياة في العربية حياة خلاقة مبدعة ذات
مبقرة خاصة وكلماتها تنم بهذه الحياة في الحين
الذي نجد الكلمات في سائر اللغات أدوات جامدة
لا يعرف فيها معنى الحياة الا بعد ان تجتمع منها الى
بعضها وتؤلف بمباراة .

واذا كانت بقية اللغات أدوات للتعبير متى
بلغتها فقد بلغت الغاية التصوي وانتهت مهمتها فان
اللغة العربية لا تكتفي بهذه الغاية بل هي تريد ان
يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر
من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال واللون
والذكاء نكرة تندلع بصورة تلقائية وتتوالد من نفسها
لأنها في تفاعلها وتطورها كأنها كائن حي يذهب ويجه
ونموذج فيه العواطف والاحاسيس ، وكلماتها الحية
ذات الاصول الثابتة تنفرع منها المعاني المتقاربة فمثلا:
النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجدر في مختلف
معاني البروز انظر الى فروع هذا الجدر فنجد ان
معنى :

نبت : برز من الارض ، ونبسط : اخرج
ماء البئر

ونبغ : خرج من العين ، ونبغ :
خرج وظهر

الى ماخر ما هنالك من الكلمات التي تتشابه في
الاصل والعربية في مبقريتها لم تكتف بهذا المنطق
الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى اكثر من
ذلك وها هي ظاهرة من ظواهر حياتها حتى في
الكلمات فهي تتساهل اشمل ما يكون التساهل حيال
من يتكلمها كما يفعل الرجل الشهم ازاء صاحبه
تماما ، خذ مثلا كلمة « فضروف » ان اجتماع العين
والضاد ينقل احيانا على اللفظ وتناسق الحروف في
الكلمة يجعلها سريعة الانفصال من اخواتها في
المباراة وفي السرعة ، فماذا تفعل العربية لتتلاشى
هذا الامر انها تتساهل معك وتقول لك اذا لم تستطع
ان تلفظ كلمة « فضروف » فألفظ « فضروف » فانها
هي نفسها ، فهي لا تمتنع الى الدرجة التي تشمر
بالبيض لها ، بل هي تأخذك بالحسنى .

وكان اللغة العربية بهذه الحركية والحيوية تريد
ان تدفع بابناء الاسلام الى المجد دفعا وتصل بهم في
ظل القرمان الكريم الى ذروة ما قدر لهم من نجاح وهز
وسؤدد ، وتفرس فيهم حب العمل والحركة
والايمتداد على ان لا امل لهم الا في انفسهم وتبعت
في قلوبهم النشاط وتقشع السكون والاستكانة فلا
ينبغي ان تكون لغة القرمان متحركة حية واهلها
جامدون ساكنون .

ولقد امر ب من الحياة في اللغة العربية العالم
النحوي ابو الفتوح عثمان بن جني فوضع القول من
الكلام والقول وانما يدلان على الحركة والسرعة
والقوة .

وذكر ان معنى « ق و ل » ابن وجدت وكيف
وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره منه
انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست
مستتملة كلها لم يهمل شيء منها وهي :

ق و ل ، ق ل و ، و ق ل ، و ل ق ،
ل ق و ، ل و ق .

الاصل الاول : « ق و ل » وهو القول وذلك
ان الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمدلان به وهو
بضد السكوت الذي هو داهية الى السكون الا ترى
ان الابتداء لما كان داخل في القول لم يكن الحرف
المبدوء به الا متحركا ولما كان الانتهاء داخل في
السكوت لم يكن الحرف الوقوف عليه الا ساكنا .

الاصل الثاني : « ق ل و » منه القلو حصار
الوحش وذلك لخفته واسرعه قال العجاج :

تواضح التقريب قلووا مفلجا

ومنه قولهم : قلو ت البسر والسويق فهما
مقلوان وذلك ان الشيء اذا قلى جف وخف وكان
اسرع الى الحركة والطف قال :

قد مجبت مني ومن بعيليا

لما راتني خلقها مقلوليا

اي خفيها للكبر طائشا

قال :

وسرب كمين الرمل عوج الى الصبا

بواعف بالحادي حور المدامع

سمن غشاء بعد ما نمن نومة

من الليل فاقولين فوق المضاجع

اي خفنن لذكره نزال عنهن نومهن واستلقاوهن
على الارض .

الاصل الثالث : « و ق ل » منه الوقل للوعل ،
وذلك لحركته وقالوا : توقل في الجبل اذا صعد فيه
وذلك لا يكون الا مع الحركة والاعتمال .

قال ابن مقبل:

مودا احم القرا ازمولة وقللا

ياي تراث ابيه يتبع القللا

الرابع : « و ل ق » قالوا ولق يلق اذا اسرع
قال :

جاءت به عنس من الشام تلق

اي تخف وتسرع وقريء «اذ تلقونه بالسنتكم»
اي تخفون وتسرمون .

الخامس : « ل و ق » جاء في الحديث لا تكل
من الطعام الا مالوق لي .

اي ما خدم وامملت اليد في تحريكه وتلييقه
حتى يطمئن وتضام جهاته ومنه اللوقة للزبدة وذلك
لخفتها واسراع حركتها .

(2) حتنسى : اي مستوية

السادس : « ل ق و » منه اللقوة للعقاب ،
قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها قال :

كاني بفتخاء الجناحين لقسوة

دغوف من المقبان طاطات شملا

ومنه اللقوة في الوجه والتقاؤهما : ان الوجه
اضطرب شكله فكانه خفة فيه وطيش منه وليس له
مسكة الصميم ووفور المستقيم ومنه قوله :

وكانت لقوة لاقت قيسا

واللقوة الناقة السريعة اللقاح وذلك انها
اسرعت الى ماء الفحل فقبلته ولم تنب عنه نبر
العاسر .

واما « ك ل م » فهذه ايضا حالها وذلك انها
حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة
والستعمل منها اصول خمسة وهي : ك ل م ،
ك م ل ، ل ك م ، م ل ك ، م ل ك واهملت
منه ل م ك فلم تات في ثبت .

فمن ذلك الاصل الاول « ك ل م » منه الكلم
للجرح وذلك للشدة التي فيه وقالوا في قوله تعالى:
«دابة من الارض تكلمهم» قولين احدهما من الكلام
والاخر من الكلام (بضم الكاف) اي تجرحهم وتاكلهم
وقالوا : الكلام (بضم الكاف) ما غلظ من الارض وذلك
لشدته وقوته ، وقالوا رجل كلم اي مجروح وجريم
قال :

عليها الشبخ كالاسد الكلم

الثاني : « ك م ل » من ذلك كمل الشيء وكمل
فهو كامل وكميل وعليه بقية التصرف والتقاؤهما :
ان الشيء اذا تم وكمل كان حينئذ اقوى واشد منه
اذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث : « ل ك م » : منه اللكم اذا وجات
الرجل ونحوه ولا شك في شدة ما هذه سبيله
انشد الاصمعي :

كان صوت جرمها تساجل

هابيك هانا حتنسى (2) تكابل

لدم المعجى تلکمها الجنادل